آراء حرة

القصة فى الأدب العربى

للأستاذ فخرى أبو السعود

حب تتبع الحوادث وحكايتها مركب فى الطبع الانسانى ، ولكن القصة كانت آخر صور الأدب ظهوراً ، فلم تعرفها الآداب القديمة ولم تظهر فى الآداب الأوربية الحديثة إلا أخيراً ، ولذلك أسباب منها الوهم الذى وَقَرَ فى نفوس الأدباء المتقدمين وإن يكن يبدو لنا اليوم غلطه واضحا : أعني توهم أن القصة إن هى إلا أحبولة أكاذيب لا يليق بالأديب الراقى أن يلهو بحوكها ، وأن القصص مرتبة من التأليف سهلة يستطيعها كل من رامها فلا يجمل بالأديب القدير أن يتدلى اليها

ومن ثم كان العرب يؤثرون الأخبار التاريخيـــة والأدبية ويخصونها بالحفظ والرواية مهما خالطها التحريف ، لاعتبار أنها حقيقة لا اختلاق ، وكثرت بينهم كتب التواريخ والسِّيَر دون كتب القصص ، ومن ثم أيضاً لم يسلك سبيل القصص من الأدباء المجيـــدين إلا من كان له غرض آخر دون القصص يوهم قراءه أو يوهم نفسه أنه الغاية التى اليها يقصد : إما باعطاء القصص مغزى وعظياً كما فى كتاب كليلة ودمنة ، أو بالباسه ثوباً قشيباً من الصناعة البلاغية كما فى مقامات الهمذانى والحريرى ، بينما تركت الأقاصيص المجردة للعامة الذين يفشو بينهم القصص فى كل العصور نتيجة لذلك الميل الطبعى فى الانسان ، وتتداول بينهم أساطير المردة والسحرة ووقائع الأبطال الغازين ومخاطرات التجار والملاحين ونوادر الظرفاء والمعتوهين

بيد أن القصة إن انعدمت من الآداب اليونانية والرومانية القديمة ومن الآداب الأوربية الحديثة الى عهد قريب ، فقد قامت مقامها عند تلك الأمم الرواية التمثيلية التى تؤثر فى النفوس لا من طريق الميل الطبعى الى القصص وحده ، بل من طريق أخرى هى الميل الى محاكاة الأشخاص وتقليد الحركات ، ومن طريق ثالثة هى الثوب الخيالى الشعرى الذى أسبغ على تلك الروايات التمثيلية .

ثم التفتت رويداً رويدا الى أحوال المجتمع فتناولت وصف شؤونه وتصوير أخلاق أفراده ، أما العرب فلم تقم لديهم لا القصة المقروءة ولا الرواية التمثيلية ، فلام يعزى ذلك ؟ يعزى الى أمرين : أولهما ايجابى هو موقف أدباء العربية من مجتمعهم ، وثانيهما سلبى هو مكانة الشعر لدى العرب

فكتاب العربية وشعراؤها عاشوا دائماً بمنجوة عن مجتمعهم لا يشتركون فى تقلباته السياسية والاجتماعية ، ولا يعبرون عن شعوره وحاجاته ، ومن ثم ندر الأدب الوطني فى العربية وإن كثر الأدب العصبى ، وندر الشعر الاجتماعى ، وكان جل شعر الشعراء فردياً يعبر عن عواطفهم وحاجاتهم الشخصية ويفيض بذم منافسيهم وأعدائهم الشخصيين ومدح أولياء نعمتهم من الكبراء والأمراء الذين يعتمدون عليهم دون الشعب ويبتغون رضاهم قبل رضا الشعب ، فلم يكن هناك تواصل وتجاوب بين الأدباء ومجتمعهم ولا رغبة لدى الأدباء فى معالجة شؤون المجتمع وتحليلها ومحاولة إصلاح فاسدها عن طريق أدبهم ، فلم يقم فى العربية أمثال أديسون وستيل ودكنز وجالزورذى من الأدباء الانجليز الذين جعلوا اصلاح الأخلاق أو ترقية المرأة أو انهاض العامل نصب أعينهم ، ولاريب أن هذا التواصل والتجاوب بين الأدباء والمجتمع واعتماد الأدباء على جمهور القراء دون هبات النبلاء أساس نمو القصة التى تصف المجتمع وتحلل الأخلاق ، ولم تنشأ القصة الحديثة فى أوربا فى القرن الثامن عشر إلا بقيام ذلك التواصل والتجاوب بين الأدب والمجتمع ، وكانت الطباعة التى سهلت انتشار الكتابات مساعدة لذلك ولا ريب

وأما مكانة الشعر الممتازة لدى العرب — والتى لعله لم ينلها لدى أمة أخرى — فانها ثبطت ماعدا الشعر من صور الأدب فقد كان الشعر لدى العرب هو الوسيلة للتعبير عن العواطف قبل كل وسيلة ، فصرفهم شديد اعتدادهم به وتوفرهم عليه عما عداه ، وأودعوه عواطفهم وأخبارهم وقصصهم ، فلو أن الشعر ترك مجالا لغيره لاحتمل أن يلجأ أديب كأبى نواس إلى القصص يودعه أنباء لهوه ووقائع غرامه ويشرح فيه ما سبر من غور العواطف وبلا من سريرة المرأة سادلاً على شخصيته ستاراً رقّ أو كثف ، ولربما كان منه فى العربية نظير لموباسان فى الفرنسية ، ولكن الشعر

كان كما تقدم هو الوسيلة للتعبير عن العواطف قبل كل وسيلة ، فلم يتردد أبو نواس فى سلوك السبيل التى سلكها ابن أبى ربيعة من قبله ، سبيل الشعر القصصى أو القصص المنظوم شعراً

إن الناظر فى أدب العرب وتاريخهم لا يسعه إلا أن يرى هذه الحقيقة بارزة : حقيقة أنّ الشعر نال من المنزلة عندهم ما لم يبلغ عند سواهم حتى طغى على مادونه من ضروب الأدب ، وأن الأدب على إطلاقه بلغ لديهم مكانة طغى بها على ما عداه من الفنون وصبغ ثقافتهم بصبغته — برغم بعده عن معالجة الحالة السياسية والاجتماعية فكان كاتبهم فى التاريخ وتقويم البلدان وغيرهما من العلوم يتحدث عن الأدباء ويرجع إلى محفوظه من الأدب ، وكم من أعلام للشعر العربى لو كان التصوير والنحت رائجين لدى العرب رواج الأدب والشعر لا نصرفوا إليها دونه أو لمارسوها معه

ولقد كتب الأستاذ الفاضل محمود خيرت فى الرسالة أخيراً يثبت وجود التصوير لدى العرب فلم يَعْدُ أنْ أثبت أنه كان فى حالة أولية لا يُفتخر بها ولا يغتبط : فان الفن الذى لا نرى له باقية ولا يمكننا أن نرى فى أدب اللغة وكتبها ، ولا يتوصل إلى إثبات وجوده إلا بشذرة شاردة فى صحيفة من كتاب ، لا يكون فنا قد نال حظا من الرقى وخالط نفوس الأمة واستدعى اهتمام مثقفيها ، والحكاية التى رواها الأستاذ عن المقريزى تشهد بذلك ، حكاية المصورين اللذين رسما صورتين إحداهما كأنها داخلة فى الحائط والأخرى كأنها خارجة منه : فانّ تفاخر الرجلين بهذا العمل الضئيل ودهش الوزير له وإسباغه عليهما المنن من أجله ووقع القصة من نفس المؤرخ حتى أثبتها فى كتابه ، كل ذلك لا يدل على إرتقاء الفن فى ذلك العصر بل يدل على كونه فى حالة بدئية ، وعلى ندرة المصورين المجيدين بل المتوسطى الحظ من الاجادة ، وكلام المؤرخ كله يدل على أن التصوير الذى عرف لذلك العهد لم يتعد الصناعة ذات الغرض العملى التى يزاولها الصُّناع كما يزاولون النقش والطلاء ، ولم يرق إلى مرتبة الفن الخالص المنزه عن الأغراض العملية

إن صور المدارس الايطالية والهولندية وغيرها منتشرة فى الأقطار تملأ المتاحف وتتحدث عن نفسها وعن رقى الفن عند أهلها قبل أن تحدثنا عن ذلك مئات الكتب التى أُلفت فيها ، فأين آثار مصورى العرب التى تحدثنا عن مثل ذلك ؟ بل أين الكتب المؤلفة فيها ؟ بل أين الصور العربية التى كانت وحيا لشعراء العربية كما

خصـــومة

للأستاذ توفيق الحكيم

بعثت اليه أول النهار بالرسالة التى سماها « باقية على الدهر » ثم أويت آخر النهار الى بيتى فوجدت اسطوانات « بيتهوفن » التى استعارها منى قد ردها الى ، فعلمت أنها القطيعة . فوقفت واجماً فى مكانى وزالت آثار الغضب ولم يبق فى نفسى الا ألم عميق : لقد انتهى كل شئ بينى وبين الدكتور طه حسين . . ولم أستطع أن أقرأ شيئاً فى ليلتى ، وما أن أقبل الصباح حتى أوفدت الى الدكتور طه حسين صديقين كريمين يحادثانه فى أمر الرسالة ، فاذا به قد دفعها الى المطبعة ، واذا به يأبى الا أن يعلن الخصومة الى الناس . وحاول الصديقان عبثاً أن يحولا بينه وبين هذا الاعلان . وحاولا عبثاً أن يقنعاه بابقاء الخصومة سراً بيننا حتى يعرض أمرها على الأستاذ الجليل لطفى السيد بك وكلانا ولده وهو أولى من جمع بين القلوب النافرة لو كان الى ذلك سبيل . لكن الدكتور طه أراد أن ينتقم فتناول القلم ووضع قصة روى فيها ما كان من أمرى وأمره

قرأت القصة فدهشت . أى روعة وأى ابداع ! إنها فى ذاتها أثر من آثار الفن الخالد ، إنى أشهد أنها عمل فنى عظيم . فيها من سعة الخيال وروعة الأسلوب ما يضمن لها البقاء . إنها هى التى ستبقى على الدهر

لقد أعجبت حقيقة بهذه القصة اعجاباً شديداً . وهى عندى من أقوى ما كتب الدكتور . ولقد أنسانى إطارها الأدبى ما احتوته

كانت الصور الأوربية وحياً لوردزورث وتنيسون وغيرهما ، أو كما كانت صور الأطلال الفارسية وحياً لسينية البحترى ؟

لن نظفر بشىء من ذلك إذا طلبناه ، ولن يسعنا إلا الاقرار بالحقيقة التى تطالع قارىء تاريخ العرب وأدبهم : وهى أن العرب كادوا أن يكونوا أمة ذات فن واحد هو الأدب وبخاصة الشعر الذى استوعب ملكات جل نوابغهم واحتوى دراسات جل مثقفيهم ذلك بأن العرب كانوا منذ جاهليتهم أمة لسان وبيان .

فخرى أبو السعود